أنيس الجليس

الجزء الاول — السنة السابعة
{الاسكندرية في ٣١ يناير (كـ٢) سنة ١٩٠٤}
{الموافق ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٢١}

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

منافع التأني

لا يبرح الانسان يذم زمانه لكل مكروه ينوبه ولا ينفك يعاتب القدر لكل محمود يفوته وكل مذموم يصيبه زاعماً ان كل ما اصابه انما هو وارد من عند الزمن فليس له لدفعه حيلة وان كل الذي برّح به قد كتبه القدر فلا يرد بوسيلة وما كان الزمن الا نفس هذا الانسان او سجايا هذا الانسان فحيث يكون التنبه تكون الوقاية وحيث يبعد الحذر يبعد الخسران والذي يراقب نفسه وسائر اخوانه يجد انه ليس لصروف الزمن من الاساءة الا العشر وما بقي فهو من الناس انفسهم لان عوادي القدر التي لا تدفع ولا يحتاط لها تكون إما مرضاً وبيلاً يصاب به الانسان من حيث لا يتقي فتسوء حاله ويشتد عوزه او يموت بعد ان يطول مرضه او خسارة دهمته في تجارة من حرب حدثت او مشكلة نشأت الى مثل هذه العوارض التي يقبل

فيها ذم الزمان والسخط على الدهر واما سائر ما يصاب به الانسان من المكاره فوارد من عند كسله او قلة احتياطه وانه من اجل هذا نجد العقلاء والاغنياء يجود الواحد منهم بعشرات الالوف على مستشفى او ملجأ ولا يجود بدرهم واحد على متسول جائل اعتقاداً منه بان المستشفى يعالج من لا حيلة له على رد مرض والملجأ يعول لقيطاً او يتيما لا يحسنان عملاً ولا يستطيعان سعياً واما ذاك الفقير الجائل فانه يتركه يعاقب على كسله من فقره حتى يتنبه من غفلته ويكف عن ذم دهره

على اننا لسنا الان في بيان جميع الخطوب التي تلم بالانسان من قلة حياطته وعدم تدبره ولكننا نذكر عواقب ما يصيبه من شدة تسرعه حين المكاره وفرط جزعه ساعة المخاطر فانه يكون معها عوناً كبيراً على نفسه في حين كان في استطاعته ان ينجو منها ولا يحسّ لصروف دهره باثر فيها . بل لقد صدق احد الاطباء اذ قال انه لو كان كل الناس يتعرضون دائماً للهواء النقي لما وجد له بينهم عملاً وذلك اعتقاداً منه بان الامراض تكون من اهمال الانسان لنفسه وعدم مراعاته لاهم اسباب حياته وهو الهواء الذي يستنشقه على الدوام واصلاً اول نفس منه بآخر نفس ولهذا يقولون ان اكثر طرق السلامة أمناً هي اكثرها بساطة واقلها جهداً ونفقة بحيث انه لو كان كل مريض يستشير في حال مرضه طبيباً ويجري على موجب وصاياه الاولية فانه يأمن كل الامن من مرض عضال يذم من اجله الدهر ويعتب على الزمن ولذلك حدثوا عن غلادستون انه اصيب مرة بمرض في عينيه فاشار عليه طبيبه بان يضع عصابة عليهما فامتنع وقال له انك حين تأمرني بان لا افتح عيني ثماني ساعات فانني لا افتحهما وقد استشهدوا بهذا القول على ان الانسان

يستطيع ان يقي نفسه حين يريد فتكون ارادته مانعة لملله ومضايقته مما هو فيه ولكنه مع ذلك لا يلبث ان يشقى بابسط الاشياء واقلها عناء

ولقد ذكرنا مرة في « حديث الانيس » ان شدة جزع الانسان وارتياعه ساعة يداهم بحالة غير مألوفة كثيراً ما يفضي الى عطبه مع انه لو تأنى واعتمد على ابسط اسباب النجاة والوقاية لنجا . ونحن الان نذكر من عواقب فرط التسرع وعدم الاعتماد على البسائط النكبة العظيمة التي اصيبت بها مدينة شيكاغو الكبرى باحتراق ملعبها في اثناء الشهر الماضي فان هذه النكبة قد افقدت اميركا من الانفس ما لا تفقده في وباء او حرب او سيل جارف وبرد شديد ونحو ذلك مما لا يرد بحيلة مع ان نجاة تلك المئات التي احترقت وماتت مدوسة بالاقدام كانت مستطاعة كل الاستطاعة بان يتأنى الجميع مدة خمس دقائق فقط فينسل الواحد منهم اثر الآخر حتى يخلصوا جميعهم لان امتداد النار ووصولها اليهم مما يقتضي اكثر من تلك المدة ولكن ترك الانسان لاسباب النجاة البسيطة الاولية وهي السكون في مثل تلك الحال واعتماده على ابعدها واصعبها وهي المكافحة والمغالبة لنجاة الواحد قبل الآخر قد كانت سبباً لعطب الجميع ولهذا لا يصح ان تعد هذه المصيبة آتية من عند القضاء او يذم فيها الزمن والدهر وانما هي قد وردت من عند الانسان ذاته وقد كان في امكانه ان يتقيها بادنى الاسباب فما اتقاها . وذلك وان كان وارداً عن طبع غريزي في الانسان وهو طبع الارتياع حين المفاجأة بغير مألوفٍ فانه مما يستطاع منعه بتعويد النفس التأني والرفق فان كل انسان منا مطبوع على الغضب حين يثار ولكن ليس كل انسان منا يقتل او يضرب ساعة الغضب وذلك لان توالي العقاب على الانسان واستمرار سماعه بعقبي المجرمين قد

اوجد في نفسه شيئاً من التأني وامتلاك العواطف مع ان تأنيه ساعة الخطر الذي يصيبه ذاته قد كان اولى من تأنيه ساعة خطر قتل يصيب سواه وقد ينجو هو منه. وهذا الخلق لابد ان يمرن عليه الناس بالتدريج كما تمرن العساكر ساعة اشتداد الهول حتى تخف اكثر الخطوب العامة ويمتنع ذم الزمان الا حين يسقط مثلاً حجر على مار فيقتله او يجرحه وحين يقع سلك الكهرباء على سابل فيصعقه

الا ان هذا الخلق غير معدوم الان من الناس جميعهم وانما هو موجود في كبار النفوس منهم كقواد الجيوش والاساطيل ورجال التدبير العمومي حتى لقد ذكروا ان كثيرين من المجرمين يعدون من اوفر الرجال عقلاً واصحهم ادراكا وذلك لانهم لا يرتاعون حين ارتكابهم الجريمة بل يعمدون الى النجاة منها بابسط الاسباب ولا يتعمقون بما يوجب الزلل فان الواحد منهم يسرق المنزل ثم يجعل نفسه كأنه شرطي يفتش عن السارق والمسروق ومنهم من يقتل القتيل ويمشي في جنازته ومنهم من يسير بعد جنايته سير المتنزه المتلهي ومنهم من يقتل القتيل ثم يسرق في الحال فيؤخذ ويودع السجن بجناية السرقة فقط ويترك الحكومة تبحث عن القاتل وهي لا تدري انه في كنفها وبين يديها . وهذا ولا ريب صادر عن نهاية التعقل وفرط التأني وشدة الحزم وادراك العواقب وانه اذا كان الذين يحاولون اذية سواهم تصفو خواطرهم الى هذا الحد حتى لا يعرف بجريمتهم احد فاولى بمن يرى الاذية واقعة عليه ان يكون كذلك بارد الصدر صافي الخاطر ينظر بعيني العقل والرأس في آن واحد

ولقد كان في جملة ما حدثوه عن منافع التأني في المواقف الضيقة ان

مئات من الناس في انكلترا كانوا واقفين مرة على رواق خشبي عظيم لمشاهدة حفلة وكان رئيس تلك الحفلة قد شعر بان ذاك الرواق الكبير يهم بالسقوط من فرط ثقل الجموع عليه الا انه في تلك الدقيقة الرائعة لم يرتع ويتسرع بل نظر الى ذاك الجمع الكثيف وهو كأنه يخطب فيهم وقال لهم انكم كلكم اقوام ارباب حزم وشجاعة والذي اريد ان اقوله لكم الان ان هذا الرواق الذي تقفون عليه قد صار ذا خطر من ثقلكم فوقه ولهذا ارى من الرأي ان ننصرف عنه جميعنا لان طول وقوفنا عليه غير محمود النتيجة

الا انكم قبل ان تنصرفوا يجب ان تعلموا ان اندفاعكم للذهاب جماهير جماهير مما يسرع في سقوطه ولذلك انصرفوا ببطء شديد عشرة عشرة فقط وانا اكون آخر منصرف من بينكم . فلما سمع الحضور هذا الكلام الصادر عن تأن ورفق علموا ان الخطر لا يزال بعيد الزمن ففعلوا كما قال الخطيب حتى نجوا جميعهم دون ان يجرح واحد منهم ثم تبعهم هو ولكنه لم يكد يفارق الرواق حتى سقط وكان سقوطه هائلاً بحيث انه لو لم يحتل عليهم بهذه الحيلة لسقط منهم مئات قتلى وجرحى

ثم انه مما يقرب من هذه الحيلة الدالة على عظم التأني وبعد النظر ما حدث للبارون روتشيلد الغني الشهير فان رعاع باريز هاجوا مرة وطلبوا ان تقسم اموال الرعية بين جميعها ثم ذهبوا الى روتشيلد طالبين منه تقسيم امواله ولكن الرجل لم يرتع ولم يجزع بل رأى ان ابسط الطرق هي اشدها امناً فانبرى للمشاغبين وقال لهم ان كل واحد من سكان فرنسا يخصه فرنك من ثروتي وانتم في عدد كذا فخذوا كل واحد منكم فرنكا ومتى جاء الباقون ادفع لهم حقهم ثم تركهم وقال لهم دعوني بعد الان اتمم عملي لغيركم فبهتوا لهذا الحكم

البسيط ورجعوا من حيث اتوا وبات الرجل مطمئناً مع انه لو ارتاع وذهب صبره لاختار بينهم وناله منهم مكروه شديد ربما يكون القتل

وعلى الجملة فان ما يسميه الافرنج بالدم البارد مما يعد من محاسن الطباع التي يجب ان يمرّن عليها كل انسان فينجو في كل حالة وان ينظر الى البسائط اولاً ثم الى المركبات حتى يستطيع الظفر بباب الهرب لان اشتعال النار في الملاعب ليس من حقه الا ان يحرقها وحدها دون ان يحرق معها احداً لولا فرط الجزع . ولكن هذا الجزع مما يجب ان يزول من كل نفس بالتعويد لان الصياح بان النار قد علقت في ملعب مما قد يكون كل يوم فيهلك بسببه مئات بل انه قد يجيء مجنون او سكران الى ملعب فيصيح هذا الصياح ولكن هل يصح ان يهلك مئات من هتاف مجنون وصراخ سكران . وعلى هذا فانه يحسن برجال المدارس والآباء ان يعودوا الاحداث هذا الخلق ويكثروا لهم من ذكر منافعه فانه من اجل ما يحتاط به انسان ويتقي به عاقل بل هو من اشرف الطباع الآدمية واولاها بالذكر والمديح ولذلك كان البحتري يكثر من مدح الفتح بن خاقان به ومن ذلك قوله

فتى لم يضيع وجه حزم ولم يبت ... يلاحظ اعجاز الامور تعقبا
اذا كف لم يقعد به العجز مقعداً ... وان همّ لم يذهب به الخرق مذهبا